

المتنبي في مصر

بقلم اصمدر اصمدر بدوي

المدرس بمدرسة بنبا قادن الابتدائية

- ١ -

بعد نحو عشر سنوات قضاهما المتنبي في ظلال سيف الدولة ، حدثت الجفوة بينهما ، بمقام به حاسدوا أبي الطيب : من وشاية ووقية ، حملت سيف الدولة على أن يصم أذنيه ، ويغمض جفنيه ، عما لحق بشاعره من إهانة في حضرته على يد ابن خالويه ، حين قام بينهما نقاش في اللغة تسابا على أثره ، وأخرج ابن خالويه من كه مفتاحا من حديد ، ضرب به وجه المتنبي ، وأسال دمه على وجهه وثيابه ، فلم ينصفه سيف الدولة ، ولم يأخذ له بحقه ، ثما يدل على أن الجفاء قد استحکم من نفس الأمير ، وأن الوشائيات قد فعلت فعلها في قلبه ، وما ظنك بوشائيات يثيرها أبو فراس الحمداني ابن عم سيف الدولة ؟ فإن ما كان يدور بينه وبين أبي الطيب من حوار ومناقشة ، يدلك دلالة لا تحتل الشك ، على أنه كان من المدبرين مع من يدبر على إبعاد المتنبي من مكاته التي نالها لدى سيف الدولة .

غضب المتنبي لما ناله ؛ فخرج لا يلوى على شيء ، مزعما فراق سيف الدولة ، وفراق البلاد التي تخضع للملكه وسلطانها ، فألقى عصا التسيار بدمشق التابعة للمملكة المصرية في ذلك الحين ، ويقول بعض المؤرخين : إن كافورا الأخشيدي أرسل إليه وهو في تلك المدينة يطلبه ، فأعرض وأبى قائلا : لا أقصد العبد ، وإن دخلت مصر فما قصدي إلا ابن سيده . هكذا يقول البعض ؛ أما أنا فأكاد أوقن أنها رواية مكذوبة عليه ، بدليل أنه حين جاء إلى مصر مدح كافورا وأطنب في مدحه ، على عكس تصريحه السابق ، الذي لو ثبت أنه قال لخشي - على أقل تقدير - أن يصل عليه إلى كافور ، فيحقد عليه ، ويعمل على الانتقام منه ، ولكنه - على

العكس من ذلك - لم يشد إلا بذكر كافور وماثره ، ولم يعرض لابن سيده إلا عرضا من غير قصد ؛ وإنما نرجح أن أبا الطيب حين خرج مغاضبا لسيف الدولة ، فكر في أن ينتقم لنفسه مما لحقها من الإهانة ، وعول على الالتجاء إلى كافور الذى كان منافسا لسيف الدولة في البلاد الشامية ، وطالما وقعت الحروب بين الإخشيد ولى نعمة كافور ، وبين سيف الدولة ؛ مما جعل بعض بلاد الشام تدخل في ملكة الإخشيد حيناً ، وفي ملكة سيف الدولة حيناً آخر ، وكان كافور نفسه أحد القواد الذين نصبهم الإخشيد على جيشه المحارب لسيف الدولة ، ومن هنا نشأ التنافس بين سيف الدولة وكافور ، ذلك التنافس الذى جعل المتنبى يفكر فى اللحاق بمنافس أميره ، الذى لم يرع له حقوقه ، ولم يعرف له قدره ، وقد يجوز أن كافورا كاتبه بالمسير إليه ، حين علم بما حدث بينه وبين سيف الدولة من جفاء ، فأجاب المتنبى طلبه ، رجاء أن يبلغ عنده ما يغسل الإهانة التى لحقت به . أضف إلى هذا أن كافورا كان يحب الأدب ويعطف على الأدباء ، مما يجنب المتنبى فيه ويبحث فيه الأمل على أن ينال منه كل أمانه .

- ٢ -

كافور الإخشيدى ، ويقال له : الأستاذ كافور ، ويكنى بأبى المسك ؛ أصله عبد حبشى خصى اشتراه الإخشيدى من بعض أهل مصر بثمانية عشر دينارا ، فما زال يتقدم عند سيده ، حتى أصبح مربى ولديه ، وقائدا من أكبر قواده الذين اعتمد عليهم فى تأسيس دولته ؛ لعقله ، وتدييره ، وشجاعته ، وحسن رأيه . فلما مات الإخشيد ، وكان قد أخذ البيعة من بعده لابنه أنو جور ، قام كافور قيا عليه ، لأن الأمير كان لا يزال قاصرا لا يستطيع إدارة البلاد ، فأصبح هو الأمير الحقيقى للبلاد ، وصاحب الحول والطول فيها ، حتى مات أنو جور عام تسع وأربعمائة ، وتولى بعده أخوه أبو الحسن على بن الإخشيد ، فاستبد كافور بالأمردونه ، حتى بلغ من شأنه أن منع الناس من الاجتماع بالأمير ، ويقال : إنه حين كبر ، وتبين ما هو فيه باح الشراب بما فى نفسه من ألم دفين : ألم ذى الحق المغصوب ، والأمر السليب ، فخاف كافور أن يفلت العرش من يده ، فدس له السم ، فمات

سنة خمس وخمسين وثلثمائة ، وهنا تولى كافور أمر مصر ، وأظهر خلعا وكتبا من الخليفة بولايته لمصر والشام والحجاز ، فتولاها حتى مات عام سبعة وخمسين وثلثمائة .

كان لكافور ناحيته المشرفة : من طموحه وهمته التي بلغت به الملك ، وله ناحية أخرى تضعه وتخط من قدره ، ولكنه ليس له يد فيها ، فهو عبد أسود خصي مثقوب الشفة السفلى ، بطين مشقق القدمين ، ثقیل البدن ، إلى غير ذلك من صفات جسمية تنأى به عن الجمال والحسن ، وقد استغل أبو الطيب الناحيتين ؛ فظفر إليه من الناحية الأولى حين أراد مدحه ، ونظر إليه من الناحية الثانية حين هجاه وأقذع في هجائه .

- ٣ -

في جمادى الآخرة سنة ست وأربعين وثلثمائة ، نزل المتنبي الديار المصرية ، وكان القائم بإدارة الملك كافور الاخشيدى ، نائبا عن أنو جور لصغر سنه ، كما أسلفنا ، فأمر له كافور بمنزل خاص به ، وخلع عليه . وحمل اليه آلاف من الدراهم كما يقول الرواة ، فأنشد أول قصيدة يمدحه فيها ومطلعها :

كَفَى بِكَ دَاءً أَنْ تَرَى الْمَوْتَ شَافِيَا وَحَسَبُ الْمَنَايَا أَنْ يَكُنَّ أَمَانِيَا

وإذا نحن قطعنا النظر عن انتقاد الرواة لمطلع هذه القصيدة ، بدعوى أنه غير لائق بفاتحة قصيدة تقال في مدح الملوك - إذا نحن قطعنا النظر عن هذا ، وجب علينا أن نلصق الإحساسات والرغبات التي كانت تدور بنفس أبي الطيب حين أنشأ هذه القصيدة ، وإننا إذا فعلنا ذلك رأينا عكس ما يراه الناقدون ، إذ نرى هذا البيت مثلاً أعظم تمثيل لنفسية المتنبي ، الساخط على الصداقة والأصدقاء ، بعد أن أصابه في مجلس سيف الدولة ما أصابه . وفي الحق أننا نلصق ثلاثة هواجس كبرى أملت بالمتنبي حين أراد إنشاء هذه القصيدة ، فعبّر عن هذه الهواجس ، وجعلها فاتحة قصيدته في مدح كافور : أول هذه الهواجس سخطه العميق على الصداقة والأصدقاء ، وشدة ضجره من قسوة أعدائه عليه ، حتى

ليجهرن بعدواته من غير لثام ولا خباء ، وحسبك أن تقبراً هذين البيتين لترى
فيهما تلك الروح الساخطة :

كَفَى بِكَ دَاءً أَنْ تَرَى الْمَوْتَ شَافِيَا وَحَسْبُ الْمَنِيَا أَنْ يَكُنَّ أَمَانِيَا
تَمَنِّيَتْهَا لَمَّا تَمَنِّيْتَ أَنْ تَرَى صَدِيقًا ، فَأَعْيَا ، أَوْ عَدُوًّا مُدَاخِيَا
أما الإحساس الثاني فهو إحساس النفس الطموح ، تصاب في أمانها ، فلا
تخضع ولا تلتين لعركة القدر ، ولكنها توطن أمرها على أن تجد ، وعلى أن تعمل ؛
أنفة من العيش بذلة ، وكان المتنبي حينئذ يحدثنا عما حدها إلى مغادرة سيف
الدولة ، وأنه طموح نفسه وأنفعتها من الخضوع والخنوع . قال :

إِذَا كُنْتَ تَرْضَى أَنْ تَعِيشَ بِذِلَّةٍ فَلَا تَسْتَعِدِّنْ الْحُسَامَ الْيَمَانِيَا
وَلَا تَسْتَطِيلَنَّ الرَّمَاحَ لِغَارَةٍ وَلَا تَسْتَجِدِّنَ الْعِتَاقَ الْمَذَاكِيَا
فَمَا يَنْفَعُ الْأَسَدَ الْحَيَاءُ مِنَ الطَّوَى وَلَا تُنْقَى حَتَّى تَكُونَ ضَوَارِيَا

أما الإحساس الثالث فهو ذلك الإحساس الذي ملك عليه كل وقته أيام إقامته
بمصر ، وهو نزوع قلبه إلى سيف الدولة ، ومجاهدته هذا النزوع ، وفي الحق أن المدة
الطويلة التي قضاه في أكناف سيف الدولة ، والبر الذي ناله على يديه ، وجلال الذكر
ونباهة الصيت الذي حازه بسبب قربه منه واستظلاله بظله ، كل ذلك كان له أثره
العميق في نفس أبي الطيب ؛ فكانت نفسه تنازعه دائماً إليه فيحن إلى عهده ،
ويتوق إلى أيامه ، ثم يعود إلى نفسه ، يلتمس لها عذراً في مفارقتها ، لتصرف
حيناً عن النزوع الشديد إليه ؛ فيرميه بالغدر ، وأن جوده شيب بالأذى ، وأن
وده غير صاف ، وقلبه غير واف . وإن مثل تلك الدعاوى ، تستوحىها النفس
المكرومة لتخفف بها ثورتها ، وتهديء لاجعها ، وأنصت إلى النزاع الذي دار بينه
وبين قلبه حين يقول :

حَيْثُكَ قَلْبِي قَبْلَ حُبِّكَ مَنْ نَأَى وَقَدْ كَانَ غَدَارًا ، فَكُنْ أَنْتَ وَافِيَا

وَأَعْلَمُ أَنَّ الْبَيْنَ يُشْكِيكَ بَعْدَهُ فَلَسْتَ فَوَادِي إِنْ رَأَيْتُكَ شَاكِياً
فَإِنْ دُوعَ الْعَيْنِ غَدْرُ رَبِّهَا إِذَا كُنَّ إِثْرَ الْغَادِرِينَ جَوَارِيَا
إِذَا الْجُودُ لَمْ يُرْزَقْ خَلَاصًا مِنَ الْأَذَى

فَلَا الْحَمْدُ مَكْسُوبًا ، وَلَا الْمَالُ بَاقِيَا
أَقْلَّ اشْتِيَاقًا أَيُّهَا الْقَلْبُ ، رَبِّمَا رَأَيْتُكَ تُصْفِي الْوُدَّ مَنْ لَيْسَ صَافِيَا
ولكن المتنبي لا يكتفى بهذا ، بل إنه ليذهب متسائلا عن سبب هذا الحين
المواصل إليه بعد ما لحقه من الإهانة في مجلسه ، فيعلل ذلك ويقول :
خُلِقْتُ الْوُفَا ، لَوْ رَجَعْتُ إِلَى الصَّبَا

لَفَارَقْتُ شَيْبِي مُوجِعَ الْقَلْبِ بَاكِياً
وخرج بعد ذلك إلى وصف الخيل التي أوصلته إلى كافور ، ثم إلى مدح
كافور ، ولقد رأيت فيما أسلفنا أن لكافور ناحيتين : ناحية يليق بها المدح ،
وأخرى يليق بها الهجاء ، ولقد استغل المتنبي ناحية الجمال في كافور ، فعلى في المدح
أيما مغالاة ، وافتن فيه أيما افتتان ، في هذه القصيدة وسع القصائد الأخرى التي
أنشدها في المدة التي بقيها بمصر مدحا لكافور ، وسنعرض لهذا المدح بعد ، غير
أننا نريد فقط أن نلصق الروح التي سرت في هذه القصائد ، والميزات العامة التي
تبدو عليها ، ويظهر أن أولى هذه الميزات إلحاحه المتواصل على كافور ، أن يوليه
ولاية ، أو يجعله على عمل ، ملح بهذا في أولى قصائده حيث قال :

وغير كثير أن يزورك راجلٌ فیرجع مملکا للعراقین والیا
فَقَدْ تَهَبُ الْجَيْشُ الَّذِي جَاءَ غَارِيَا لِسَائِكَ الْفَرْدِ الَّذِي جَاءَ عَافِيَا
ثم طلب إليه صراحة أن يكل إليه أي أمر أراد ، فانه أسد القلب ، آدمى
الرواء ، فلما لم يكل إليه أمرا بعد مضي أربعة أشهر على قدومه مصر ، عاد يطلب
منه أن يوليه ولاية بالإغراء الملح حيث يقول :

قَالُوا: هَجَرْتَ إِلَيْهِ الْعَيْثَ؛ قُلْتُ لَهُمْ

إِلَى غِيُوثٍ يَدِيهِ وَالشَّايِبِ
إِلَى الَّذِي تَهَبُ الدَّوْلَاتُ رَاحَتُهُ وَلَا يَمُنُّ عَلَى آثَارِ مَوْهُوبٍ
فلم يحبه كافر بعد كل هذا الإغراء، فظن أبو الطيب، أو أراد أن يلقى في
روع نفسه، أن عدم توليته وتنصيه على عمل، ربما يعود إلى أن كافورا يشك في
كفايته لهذا الأمر، فطلب إليه أن يجر به ليظهر له الحق من الباطل، وقال:

فَكُنْ فِي اصْطِنَاعِي مُحْسِنًا كَمَجْرَبٍ

يَبِينُ لَكَ تَقَرُّبُ الْجَوَادِ وَشَدَّةُ
إِذَا كُنْتَ فِي شَكٍّ مِنَ السَّيْفِ قَابِلُهُ فَأَمَّا تَنْفِيهِ ، وَإِمَّا تَعْدُهُ
وَمَا الصَّارِمِ الْهِنْدِيُّ إِلَّا كَغَيْرِهِ إِذَا لَمْ يُفَارِقْهُ النَّجَادُ وَغَمْدُهُ
وكان ذلك الحديث في ذى الحجة من السنة الأولى لدخوله مصر، فاصم
كافور أذنيه عن دعائه، ولم يحبه إلى طلبته، فلم يئأس أبو الطيب، وظل يضرب
على نغمة أنه يريد كيد أعدائه وإغاظة الشامتين الذين رجوا له البوار بعد فراق
سيف الدولة، فقال له:

أَبَا الْمِسْكِ أَرْجُو مِنْكَ نَصْرًا عَلَى الْعَدَا

وَأَمْلُ عِزًّا يَخْضِبُ الْبَيْضَ بِالْدَمِ
وَيَوْمًا يَغِيظُ الشَّامِتِينَ ، وَحَالَةً
أَقِيمِ الشَّقَا فِيهَا مَقَامَ التَّنْعَمِ
وَمِثْلُكَ مَنْ كَانَ الْوَسِيطَ فُؤَادُهُ

فَكَلَّمَهُ عَنِّي ، وَلَمْ أَتَكَلَّمْ

ولكن فؤاد كافور لم يكلمه عنه أيضا، ولم يجبه إلى طلبته، فضج أبو الطيب من هذه الحال، وضجر لبعد أمه، وتعمر نيله عليه، فقال لكافور في شهر شوال سنة سبع وأربعين وثلاثمائة، أي بعد سنة ونصف من قدومه إلى مصر تقريرا:

أَبَا الْمِسْكِ، هَلْ فِي الْكَأْسِ فَضْلٌ أَنَالَهُ؟

فَإِنِّي أَغْنَى مُنْذُ حِينٍ وَتَشْرَبُ

وَهَبْتَ عَلَى مِقْدَارِ كَفِّي زَمَانِنَا

وَنَفْسِي عَلَى مِقْدَارِ كَفِّكَ تَطْلُبُ .

إِذَا لَمْ تَنْطُبْ بِي ضَيْعَةً أَوْ وَلَايَةً

فَجُودُكَ يَكْسُونِي ، وَشُغْلُكَ يَسْلُبُ

وكانت تلك الدعوة كسابقاتها، لم تجد قبولا من نفس كافور، فأصم أذنيه كذلك عن سماع رجائه، فضاق أبو الطيب ذرعا، وبدأ يرى أن كافورا لن يعطيه ولاية، ولن ينصبه على عمل، فضجر وسم، ولكنه لم يشأ أن يياس وأن يستسلم، فبعد سنتين من تاريخ إلقائه هذه القصيدة، أنشده قصيدة أخرى كانت هي آخر ما أنشده، وفيها يقول:

أَرَى لِي بِقُرْبِي مِنْكَ عَيْنًا قَرِيرَةً	وَإِنْ كَانَ قُرْبًا بِالْبِعَادِ يُشَابُ
وَهَلْ نَافِعِي أَنْ تَرْفَعَ الْحُجُبَ بَيْنَنَا	وَدُونَ الَّذِي أَمَلْتُ مِنْكَ حِجَابُ
أَقِلْ سَلَامِي حُبَّ مَا خَفَّ عَنْكُمْ	وَأَسْكُتُ، كَيْمَا لَا يَكُونُ جَوَابُ
وَفِي النَّفْسِ حَاجَاتٌ، وَفِيكَ فَطَانَةٌ	سَكُوتِي بَيَانٌ عِنْدَهَا وَخِطَابُ
وَمَا شِئْتُ إِلَّا أَنْ أَدُلَّ عَوَازِلِي	عَلَى أَنْ رَأَيْتُ فِي هَوَاكَ صَوَابُ
وَأَعْلِمَ قَوْمًا خَالَفُونِي فَشَرُّوْا	وَعَرَّبْتُ، أَنِّي قَدْ ظَفِرْتُ، وَخَابُوا

غير أن ذلك لم يغير من الموقف شيئاً ، ولم يمنحه كافور الولاية . وإن هذا اللجاج من المتنبى فى طلب ولاية من كافور ليملاشعره ، حتى إن قصيدة واحدة من قصائد مدحه له ، لم تخل من تحدّثه عن هذا الأمل ، ورغبته الملحة فى إنجازها ؛ وهذا يـُصور أمامنا نفسية المتنبى ظاهرة دون خفاء ، فهو يرغب فى الملك ويطمح إليه ، وقد ظن أن نبوغه فى الشعر وكثرة مدحه لكافور يوصلانه إلى أمله ، فيغيب حساده ، الذين كادوا له عند سيف الدولة ، ولكن كافور كان أحكم من أن يغرّه مثل شعر المتنبى ومديحه ، فاعتقده أولاً غير أهل للولاية والسلطان وإدارة شؤون عمالة من العمالات . وهى تلك العقيدة التى جد المتنبى كثيراً فى سبيل إبطالها . وطلب إليه أن يبلّوه ويختبره ، لأن السيف ما دام فى قرابه لا يميز جيده من رديئه ، وعند الاختبار يبدو الصغر من النضار ، وهناك رواية تحدّثنا أن كافور أسئل : لماذا لم يول أباً الطيب ولاية ؟ فقال : إنه وهو فقير معدم قد ادعى النبوة بعد النبى ، فكيف به بعد أن بلى ، ويصبح له أتباع وأنصار ؟ إنه لا يأمن أن يستقل بولايته ، أو أن يرثه فى مصر كلها بعد مماته ، ويقولون : إن المتنبى طلب منه ولاية (صور) فى الشام : أو إحدى ولايات الصعيد . وهذه الرواية تبين السبب الأساسى الذى حدا بكافور أن يمنعه تولى ولاية بعد أن كان قد وعده بها ، ومناه ؛ فإن شعر المتنبى يدلنا على أن كافورا وعده بولاية بعض أعماله ، ولكنه لم يف له بهذا الوعد - ولقد لجأ المتنبى إلى طريقتين يستجلب بهما رضا كافور عن توليته عمالة من عمالات ملكه ؛

أولاهما : (وهى ثانية الظواهر الثلاث فى شعره بمصر) إظهار نفسيته بمظهر المترفع المتعالى ، ووصفها بأنها نفسية ملك حلت فى إهاب شاعر ، فهو يقول له مرة :

وَفُؤَادِي مِنَ الْمُلُوكِ ، وَإِنْ كَا نَ لِسَانِي يُرَى مِنَ الشُّعْرَاءِ

ويقول له أخرى :

تَهْوَى بِمُنْجَرِدٍ لَيْسَتْ مَذَاهِبُهُ لِلْبَسِ ثَوْبٍ وَمَا كُولٍ وَمَشْرُوبٍ
يَرَى النُّجُومَ بِعَيْنِي مَنْ يُحَاوِلُهَا كَأَنَّهَا سَلَبٌ فِي عَيْنٍ مَسْلُوبٍ

(٧ - صحيفة دار العاوم)

ويقول في ثالثة :

وَفِي النَّاسِ مَنْ رَضِيَ بِمَسُورِ عَيْشِهِ وَمَنْ كُوبَهُ رَجُلَاهُ، وَالثَّوبُ جُلْدُهُ
وَلَكِنْ قَلْبًا بَيْنَ جَنَبِيٍّ، مَالَهُ مَدَى يَنْتَهِي بِي فِي مُرَادٍ أَحَدُهُ

وقد حسب المتنبي أن ذلك يرشحه لمنصب الملك ، وبهية للعرش والسلطان ، فلا يحقره كافور بدعوى أنه شاعر لا علاقة له بالملك والحكم ، ولكنى أكاد أوقن أن ذلك من الأسباب الرئيسية التي خوفت كافورا من استخدامه وإبلاغه أمله ، فانه يخشى تلك النفسية العظيمة التي بين جنبي المتنبي أن تعمل على الاستقلال والانفراد .

والطريقة الثانية : الاغراق في مدح كافور إلى آخر حدود الاغراق ، فانه قد استغل الناحية المشرقة من كافور استغلالا تاما ، وحسبك أن تسمع قوله في القصيدة الأولى :

قَوَاصِدُ كَافُورٍ تَوَارِكُ غَيْرِهِ وَمَنْ قَصَدَ الْبَحْرَ اسْتَقْلَّ السَّوَاقِيَا
فَجَاءَتْ بِنَا إِنْسَانٍ عَيْنِ زَمَانِهِ وَخَلَّتْ بَيَاضًا خَلْفَهَا وَمَاقِيَا
نَجُوزُ عَلَيْهَا الْمُحْسِنِينَ إِلَى الَّذِي نَرَى عِنْدَهُمْ إِحْسَانَهُ وَالْأَيَادِيَا
فَتَى مَا سَرَيْنَا فِي ظُهُورِ جُدُودِنَا إِلَى عَصْرِهِ إِلَّا نُرْجَى التَّلَاقِيَا
تَرَفَّعَ عَنْ عُونِ الْمَكَارِمِ قَدْرُهُ فَمَا يَفْعَلُ الْقَمَلَاتِ إِلَّا عَذَارِيَا
أَبَا الْمِسْكِ، ذَا الْوَجْهِ الَّذِي كُنْتُ تَائِقًا إِلَيْهِ، وَذَا الْيَوْمِ الَّذِي كُنْتُ رَاجِيَا
أَبَا كُلِّ طَيْبٍ، لَا أَبَا الْمِسْكِ وَحْدَهُ وَكُلِّ سَحَابٍ، لَا أَخْصُ النُّوَادِيَا
يُدِلُّ بَعْنَى وَاحِدٍ كُلُّ فَاحِرٍ وَقَدْ جَمَعَ الرَّحْمَنُ فِيكَ الْمَعَانِيَا
وقوله في أخرى :

تَقْضَحُ الشَّمْسُ كُلَّمَا ذَرَّتِ الشَّمْسُ بِشَمْسٍ مُنِيرَةٍ سَوْدَاءَ
إِنَّ فِي ثَوْبِكَ الَّذِي الْمَجْدُ فِيهِ لَضِيَاءَ يُزْرِى بِكُلِّ ضِيَاءَ

إِنَّمَا الْجِلْدُ مُلْبَسٌ، وَإِيضًا نَفْسٌ خَيْرٌ مِنْ إِيضَاضِ الْقَبَاءِ
 كَرَّمَ فِي شَجَاعَةٍ، وَذَكَرَ فِي بَهَاءٍ، وَقُدْرَةٍ فِي وَفَاءٍ .
 مَنْ لِيِضِ الْمُلُوكِ أَنْ تُبَدِّلَ اللَّوْنُ نَ بِلَوْنِ الْأُسْتَاذِ وَالسَّحْنَاءِ ؟
 فانظر اليه كيف يلتمس العذر للونه ، ويعده من المفاخر التى يشرف الملوك
 أن تبدل ألوان جلودهم بلون جلده .

وإذا كانت الطريقة الأولى لم تنجح فى جلب ولاية للمتنبى ، فلم تكن الطريقة
 الثانية بأنجح منها ، وأغلب الظن أن كافورا كان يود من أبى الطيب أن يظل
 فى دولته تحت لوائه ، على أن يكون شاعره الخاص ، متمعا بكل مظاهر الترف
 والرفهية ، على شريطة ألا يطمع فيما سوى ذلك ، ولكنها نفس أبى الطيب
 الطموح التى لا ترضى بالقليل .

الظاهرة الثالثة هى التى تحدثنا عن النزاع الذى كان قائما بين المتنبى ونفسه ،
 وحينئذ الدائم إلى سيف الدولة ، فهو لا يكاد ينشئ قصيدة فى مدح كافور إلا
 ويذكر فيها سيف الدولة وألمه لفراقه ، وكان بجانب ذلك يتلمس الأسباب التى
 تهدى من روعه حيناً ، وتخفف عليه شدة هذا الفراق حيناً آخر ، وإن رغبته
 فى تهدئة قلبه وضميره هى التى كانت تدعوه فى كثير من الأحيان إلى أن ينسب
 سيف الدولة إلى إهائته وجفوته ، ثم يعود غير مطمئن إلى ذلك ، فيندم ويتحسر ،
 ثم يعود وهكذا ، مما يدل على نزاع قلبه الدائم إلى سيف الدولة ، وإن شئت أن
 تلمس ذلك فاقرا قوله :

فِرَاقٌ ، وَمَنْ فَارَقْتُ غَيْرُ مُذَمَّمٍ .	وَيَمٌّ ، وَمَنْ يَمَعْتُ خَيْرُ مُعَمَّمٍ !
وَمَا مَنَزَلُ اللَّذَاتِ عِنْدِي بِمَنْزِلِ	إِذَا لَمْ أُبَجِّلْ عِنْدَهُ ، وَأُكْرَمِ
فَلَوْ كَانَ مَا بِي مِنْ حَيِّبٍ مُقْنَعٍ	عَذَرْتُ ، وَلَكِنْ مِنْ حَيِّبٍ مُعَمَّمٍ .
رَمَى ، وَاتَّقَى رَمِي ، وَمِنْ دُونِ مَا اتَّقَى	هُوَ كَأْسِرُ كَفَى ، وَقَوْسِي ، وَأَسْهَمِي

أَصَادِقُ نَفْسِ الْمَرْءِ مِنْ قَبْلِ جِسْمِهِ وَأَعْرِفُهَا فِي فِعْلِهِ وَالتَّكَلُّمِ
وَأِنْ بَذَلَ الْإِنْسَانُ لِي جُودَ عَابِسٍ جَزَيْتُ بِجُودِ التَّارِكِ الْمُبْتَسِمِ
وقوله :

وَلِلَّهِ سَيْرِي ! مَا أَقْلَ تَنِيَّةً عَشِيَّةَ شَرْقِيَّ الْحَدَالِي وَغُرْبُ
عَشِيَّةَ أَخْفَى النَّاسِ بِي مَنْ جَفَوْتُهُ وَأَهْدَى الطَّرِيقَيْنِ الَّتِي أَتَجَنَّبُ
وفي الحق إننا لآنكون مغالين إذا قلنا : إن حنينه إلى سيف الدولة لم يفارقه
طول المدة التي قضاها بمصر في ظلال كافور .

— ٤ —

اتصل أبو الطيب المتنبي ، وهو بمصر بقائد آخر هو أبو شجاع فاتك ،
وأبو شجاع فاتك هو الذي يقول عنه ابن خلكان : إنه يملك رومي الأصل ،
وكان سيده قد أعتقه بالرَّمْلَة ، عند ما أراد الإخشيد أن يأخذه منه كرها ، وكان
شجاعا مقداما ، ولذلك لُقِّبَ بالمجنون ، وكان رفيق الأستاذ كافور في خدمة
الإخشيد ، فلما مات مخدومهما وتقرر كافور في خدمة ابن الإخشيد ، أتف فاتك
من الإقامة بمصر ، كي لا يكون كافور أعلى منه مرتبة ، ويحتاج أن يركب في
خدمته ، وكانت الفيوم وأعمالها إقطاعا له ، فانتقل إليها ، واتخذها مسكنا ، فلم
يصح له بها جسم ، وكان كافور يخافه ، ويكرمه خوفا منه ، وفي نفسه منه ما فيها ،
فاستحكمت العلة في جسم فاتك ، وأحوجته إلى دخول مصر للعلاج ، فدخلها ،
وبها أبو الطيب المتنبي ضيفا للأستاذ كافور ، وكان يسمع بكرم فاتك وكثرة
شجاعته ، غير أنه لا يقدر على قصده خوفا من كافور ، وفاتك يسأل عنه ويراسله
بالسلام ، ثم التقيا بالصحرَاء مصادفة من غير ميعاد ، فلما رجع فاتك إلى داره
حمل لأبي الطيب في ساعته هدية قيمتها ألف دينار ، ثم أتبعها هدايا أخرى
فاستأذن المتنبي الأستاذ كافورا في مدحه ، فأذن له ؛ فمدحه بقصيدته المشهورة :
(لا خيل عندك تهديها ولا مال) . انتهت رواية ابن خلكان . وهي رواية يذكرونها

جل مؤرخى المتنبى وفاتك؛ وإذا رجعنا إلى شعر المتنبى فى فاتك، وجدنا فيه روح الحب وروح صدق المودة؛ واسنا نستدل على ذلك بقصيدته التى مدحه بها . فقد يكون ذلك ناشئاً عن رغبته فى عطاياه . ولكننا نستدل عليه بقصائده التى رثاه بها؛ فهى ثلاث قصائد تفيض بالحب وصدق المودة؛ كما سنبين بعد بما يدلنا على أن روحيهما قد تألفا، وأن المتنبى أخلص له المودة وصافاه وأخلص له المصافاة؛ وكان ذلك من الأسباب التى حمت كافوراً على بغض المتنبى وكرهته . . . مدح المتنبى فاتك بقصيدته التى مطلعها :

لَا خَيْلَ عِنْدَكَ تُهْدِيهَا، وَلَا مَالٌ فَلَيْسَ عَدِ النَّطْقُ، إِنْ لَمْ يُسْعِدِ الْحَالُ
وهى قصيدة طويلة لم تباع إحدى قصائده فى كافور مبلغها؛ ولعل المتنبى أحس طولها؛ فأراد أن يعتذر من هذا التطويل الذى يكرهه بعض الناقدين للأدب، فقال :

وَقَدْ أَطَالَ ثَنَائِي دَوْلُ لَا بِسِهِ إِنَّ الثَّنَاءَ عَلَى الثَّنَائِلِ تَنْبَالُ
وقد أوحى إليه فكره ماشاء أن ينسبه إليه من كرم وشجاعة وفضل ونبل . وغالى فى ذلك أيما مغالاة حتى قال :

كَفَاتِكَ ، وَدَخُولُ الْكَافِ مَنَقَصَةٌ

كَالشَّمْسِ قُلْتُ ، وَمَا لِلشَّمْسِ أَمْثَالُ

ولم ينس أن يرد على من يلقيه بالمجنون بقوله :

وَقَدْ يُلَقَّبُهُ الْمَجْنُونُ حَاسِدُهُ إِذَا اخْتَلَطَنَ ، وَبَعْضُ الْعَقْلِ عَقَالُ

أى أن حاسده يلقيه بالمجنون إذا اختلطت السيوف والرماح ، لما يراه من شجاعته وإقدامه ، مع أن العقل فى مثل هذه الحال لا يحمى

أما الذى نستدل به على وفاء المتنبى لفاتك ، فهو كما قلنا قصائد رثائه فيه ، وهى ثلاث :

أولها — أنشأها خاصة لرثائه ، بعد أن ترك مصر ، وقد حدثنا فيها عن

عواطفه إزاء الراحل العزيز لديه ، الحبيب إلى قلبه ؛ ثم سجل في شعره لفاتك خلال السمو والنبيل ، حتى لقد رفعه عن أهل زمانه ، وجعل قدره أسمى من أن يعيش معهم . وهو في هذه القصيدة قد أراد أن يعيظ كافوراً من ناحية . وأن يوازن بين فاتك من ناحية أخرى ، وكانت نتيجة هذه الموازنة وضعاً من شأن كافور ، ورفعاً من قدر فاتك . ولأنقل هنا بعض هذه القصيدة لترى فيها بعض ما ذكرت ؛ قال :

كُنَّا نَظُنُّ دِيَارَهُ مَمْلُوءَةً	ذَهَبًا ؛ فَمَاتَ وَكُلُّ دَارٍ بَلَقَعَ
وَإِذَا الْمَسْكَارِمُ وَالصَّوَارِمُ وَالْقَنَا	وَبَنَاتُ أَعْوَجَ ، كُلُّ شَيْءٍ يَجْمَعُ
الْمَجْدُ أَخْسَرُ - وَالْمَسْكَارِمُ - حَقِيقَةٌ	مِنْ أَنْ يَعِيشَ لَهَا الْهُمَامُ الْأَرْوَعُ
وَالنَّاسُ أُنْزِلُ فِي زَمَانِكَ مَنْزِلًا	مِنْ أَنْ تُعَايِشَهُمْ ، وَقَدْرُكَ أَرْفَعُ
بَرْدَ حَشَايَ إِنْ اسْتَطَعْتَ بِلَفْظَةٍ	فَلَقَدْ تَضُرُّ إِذَا تَشَاءُ وَتَنْفَعُ
مَنْ لِلْمَحَافِلِ وَالْجَحَافِلِ وَالسَّرَى؟	فَقَدَّتْ بِفَقْدِكَ نَيْرًا لَا يَطْلُعُ
وَمَنْ اتَّخَذَتْ عَلَى الضُّيُوفِ خَلِيفَةً؟	ضَاعُوا ! وَمِثْلُكَ لَا يَكَادُ يُضِيعُ
قُبْحًا لَوَجْهِكَ يَا زَمَانُ ؛ فَإِنَّهُ	وَجْهٌ لَهُ مِنْ كُلِّ قُبْحٍ بَرْقُعُ
أَيُّمُوتُ مِثْلُ أَبِي شُجَاعٍ فَاتِكَ	وَيَعِيشُ حَاسِدُهُ الْخَصِي الْأَوْكَعُ؟
أَبْقَيْتَ أَكْذَبَ كَاذِبٍ أَبْقَيْتَهُ	وَأَخَذْتَ أَصْدَقَ مَنْ يَقُولُ وَيَسْمَعُ
وَتَرَكْتَ أَنْتَنَ رِيحَةٍ مَذْمُومَةٍ	وَسَلَبْتَ أَطْيَبَ رِيحَةٍ تَتَضَوَّعُ

أما القصيدة الثانية فلم يتشأها قصداً لرثاء فاتك ، ولكنه عرض لرثائه في أثناءها ، والقصيدة في الواقع أنشأها المتنبي يصف لنا فيها خروجه من مصر ، ويحدثنا عن بعض الفلسفة التي أوحىها إليه المدة التي قضاها في مصر ، وسوف نعرض لهذا كله بعد ؛ على أن بضمة الآيات التي تحدث فيها عن فاتك لم تخل

من روح التعظيم له والجلال ، فجعل الأحياء كلهم لا يشابهونه في شيمة ، فلما مات لم يبق له خلف فيهم ، وأنصت إليه يقول :

لَا فَاتَكَ آخَرَ فِي مِصْرَ تَقْصِدُهُ وَلَا لَهُ خَلْفٌ فِي النَّاسِ كُلِّهِمْ

مَنْ لَا تَشَابَهُهُ الْأَحْيَاءُ فِي شِيمٍ أَمْسَى تَشَابَهُهُ الْأَمْوَاتُ فِي الرَّمَمِ
عَدِمَتْهُ ، وَكَأَنِّي سِرْتُ أَطْلُبُهُ فَمَا تَزِيدُنِي الدُّنْيَا عَلَى الْعَدَمِ

أما القصيدة الثالثة ، فهي قطعة صغيرة لا تزيد على عشرة أبيات ، لم ينس فيها أن يعرض بملوك مصر ، وأنهم اذ أقيسوا بفاتك خرجوا أصفارا أنفع من وجودهم عدمه ، وأجود من جودهم بخله ، وأحد من حمدهم ذمه ، وأشرف من عيشهم موته

— ٥ —

أقام المتنبى في مصر نحو ثلاث سنوات ونصف سنة ، مدح كافورا في أثنائها بأربع قصائد في نصف السنة الأولى لمقدمه عام ستة وأربعين وثلاثمائة ، وبأثنتين في سنة سبع وأربعين وثلاثمائة ، وبدا بعد ذلك الضجر على أبي الطيب ، وداخله حقد على كافور ، لأنه لم ينله أمنيته ، فلم يمدحه في سنة ثمان وأربعين وثلاثمائة إلا بقصيدة ظاهرها مدح وباطنها هجاء مقدع مر ، وفي سنة تسع وأربعين وثلاثمائة ألقى آخر سهم في كنفاته ، فمدحه في شوال من تلك السنة بآخر قصيدة ظل بعدها عاما لا يلقى كافورا ، وإن كان يركب في معيته حذرا من غضبه عليه ، والقارىء لشعر المتنبى يلس فيه قوة أمل أبي الطيب واتساع رجائه في أشعاره الأولى التي مدح بها كافورا ، وقد لا نغالى إذا قلنا إن كافورا من ناحيته قد أكرم مشواه ، وخلع عليه ، ووهبه ؛ فان التاريخ يحفظ له أنه كان نصير الأدب ، وكان برا بالأدباء ، جوادا معطاء ، وإن كان كافور في هذه المدة قد داخله الشك في صحة احترام المتنبى له ، واعتقاده صدق ما يقول فيه ؛ فقد ذكر صاحب الصبح المتنبى أن المتنبى كان يقف بين يدي كافور . وفي رجليه خفان ، وفي وسطه سيف

ومنطقة ، ويركب بحاجبين من مماليكه ، وهما بالسيوف والمناطق ، وكان لا يجلس في مجلس كافور ؛ وروى الرواة أن كافورا دس إلى أبي الطيب من قال له : قد طال قيامك في مجلس كافور . يريد أن يعلم ما في نفسه له ، فقال ارتجالا :

يَقُلُّ لَهُ الْقِيَامُ عَلَى الرَّؤُوسِ وَبَذَلُ الْمَكْرُمَاتِ مِنَ النَّفُوسِ

وكثيرا ما سئل المتنبي عن السبب الذي حدا به إلى الوقوف بين يدي كافور مع رفضه ذلك بين يدي سيف الدولة ، والسبب في الحقيقة هو تلك الآمنية الكبيرة التي كان يرجو تحقيقها على يدي كافور ، فلما انقضى عامان على مقدم أبي الطيب بدأ أمله يبعد ، وبدأ يرى أن كافورا لن يبلغه مأربه ، فداخله الحقد عليه ، وهاجت به عوامل الثورة والنقمة ، حتى إنه حين ذكر قتل شبيب العقيلي الثائر على كافور ؛ لم يستطع أن يخفي ما بقلبه من ضغينة عليه ، فتهكم به ، وحدثه أنه نال ما ناله بالخط ، لا بالسعي والجد ، وإذا كان كذلك فليس له فضل ولا فضيلة ، واستمع إلى التهكم القاتل في قوله :

قَضَى اللَّهُ يَا كَافُورُ أَنَّكَ أَوَّلُ وَلَيْسَ بِقَاضٍ أَنْ يُرَى لَكَ ثَانٍ
فَمَا لَكَ تَخْتَارُ الْقِسْيَ وَإِنَّمَا عَنِ السَّعْدِ يَرْمِي دُونَكَ الثَّقْلَانِ
وَمَا لَكَ تُغْنَى بِالْأُسْنَةِ وَالْقَنَاءِ وَجَدَّكَ طَعْمَانُ بِغَيْرِ سِنَانٍ
وَلِمَ تَحْمِلُ السَّيْفَ الطَّوِيلَ نَجَادُهُ وَأَنْتَ غَنِيٌّ عَنْهُ بِالْحَدَثَانِ !

ولما لم يجد من كافور سامعا لتلبية رغباته ، عزم على الرحيل من مصر ، وتجسست فكرة الرحيل عن مصر في رأسه ، منذ عام ثمانية وأربعين وثلاثمائة ، فقد أصابته الحمى ، في شهر ذى الحجة من تلك السنة ، فوصفها ، وفي أثناء وصفها عرض برغبته في الرحيل عن مصر ، وشكى حاله التعسة بها ، مما يشعرنا بأن الجفوة وجدت سبيلها إلى فؤادهما ، حتى أصبح كافور يبتسم فقط إلى أبي الطيب من غير أن تكون هذه الابتسامة دليلا على صفاء الحب وإخلاص المودة ، والمتنبي من ناحيته يجازيه على هذه الابتسامة بابتسامة أخرى لا تزيد على ابتسامته

ولعل أبا الطيب لم ينج في مصر أيضاً من الحساد والحاقدين ، وقلة الأصدقاء المخلصين ، مما جعله يزيد ملالا في مصر وأهل مصر ، وحقاً إن مثل أبي الطيب ما كانت لتطيب له مصر ، أو ليهدأ فيها ، مادام أمله الذي جاء من أجله لم يتحقق فليغادرها إلى حيث يجد لنفسه الطموح مكاناً ، واسمعه يقول في قصيدة وصف الحمى :

وَلَمَّا صَارَ وَدُّ النَّاسِ خِبَاً جَزَيْتُ عَلَى ابْتِسَامٍ بِابْتِسَامٍ
وَصِرْتُ أَشْكُ فِيمَنْ أَصْطَفِيهِ لِعِلْمِي أَنَّهُ بَعْضُ الْأَنَامِ
أَقْتُ بِأَرْضِ مِصْرَ ، فَلَا وَرَائِي تَخُبُ بِي الرَّكْبُ وَلَا أَمَامِي
وَمَلَّنِي الْفِرَاشُ ، وَكَانَ جَنِّي يَمَلُّ لِقَاءَهُ فِي كُلِّ عَامٍ
قَلِيلٌ عَائِدِي ، سَقِمْتُ فُوَادِي كَثِيرٌ حَاسِدِي ، صَعِبُ مَرَامِي

أَلَا يَا لَيْتَ شِعْرِي دِي : أَتُسْمِي تَصَرَّفُ فِي عِنَانٍ أَوْ زِمَامٍ ؟

يَقُولُ لِي الطَّيِّبُ : أَكَلْتُ شَيْئًا وَدَاوُكَ فِي شَرَابِكَ وَالطَّعَامِ
وَمَا فِي طَبِّهِ أَنِّي جَوَادُ أَضَرَ بِجِسْمِهِ طُولُ الْجِمَامِ
وروى أن المتنبى قال : كنت إذا دخلت على الأسود ، كافور ، هش لمقدمي وفرح به وابتم لي ، فلما أنشدته : ولما صار ودُّ الناس خباً . . البيت ، كفَّ عن الابتسام والضحك ، وتلك الرواية تؤيد صحة ما استنبطناه فيما سبق ، غير أن كافوراً لم يسمح لأبي الطيب بالرحيل عن مصر ، وأبى عليه أن يغادرها ، حتى لقد استأذنه مرة أن يخرج إلى الرملة ، ليقضى مالا كتب له به فتنعه ، وحلف عليه ألا يخرج ، وقال : نحن نوجه من يقضيه لك ، فغضب أبو الطيب ، وحق عليه في قلبه

غير أن يبتين قالمها في تلك الحادثة أحب أن أوجه إليهما النظر قال :

إِذَا سِرْنَا عَنِ الْقُسْطَاطِ يَوْمًا فَلَقَّنِي الْفَوَارِسَ وَالرَّجَالَ
لِتَعْلَمَ قَدَرُ مَنْ فَارَقَتْ مِنِّي وَأَنَّكَ رُمْتَ مِنْ ضَيْمِي مُحَالًا
فهل حقاً كان كافور يقصد إذلال المتنبي وإلحاق الضيم به كما قال ؟ إن بعض
الروايات ترجح هذا الذي قاله ، ولعل كافوراً حين علم أن المتنبي يبعضه ويحتقره
ويدبر الهرب من مصر خشى أن يهجوّه ، ويقذع في هجائه ، فضيق عليه سبيل
الهرب قصد إيلاّمه وإذلاله .

— ٦ —

قلت إن آمال المتنبي التي أنزلها بوادي كافور لم تجد سبيلها إلى التحقق ، ولم
يظفر منها المتنبي بقليل أو كثير . فلم يبق بد من أن يجد اليأس سبيله إلى قلبه ،
واليأس يبعث في نفس صاحبه الحقد والضغينة والغضب ، كما بعثت في قلب المتنبي
فتار وغضب ، وانقلبت محامد كافور في نظره مساوئ ومخازي ، وبدأ يهجوّه
هجاء مرّاً مقيّداً في تهكم قاتل مرير في أثناء وجوده بمصر ، فقد نظر مرة إلى شقوق
رجليه ، فقال قصيدة منها :

أَمِينًا ، وَإِخْلَافًا ، وَغَدْرًا ، وَخِسَّةً
تَظُنُّ ابْتِسَامَاتِي رَجَاءً وَغِبْطَةً
وَتَعْجِبُنِي رِجْلَاكَ فِي النَّعْلِ ، إِنَّنِي
وَإِنَّكَ لَا تَذَرِي أَلْوَنُكَ أَسْوَدَ
وَيُذَكِّرُنِي تَخْيِيطُ كَعْبِكَ شَقَّهُ
وَمِثْلُكَ يُؤْتِي مِنْ بِلَادٍ بَعِيدَةٍ
وَجُبْنًا ، أَشْخَصًا لُخْتُ لِي ، أَمْ مَخَازِيَا ؟
وَمَا أَنَا إِلَّا ضَاحِكٌ مِنْ رَجَائِيَا
رَأَيْتُكَ ذَا نَعْلٍ إِذَا كُنْتَ حَافِيَا
مِنَ الْجَهْلِ أَوْ قَدْ صَارَ أَيْضَ صَافِيَا
وَمَشِيكَ فِي ثَوْبٍ مِنَ الزَّيْتِ عَارِيَا
لِيُضْحِكَ رَبَّاتِ الْحِدَادِ الْبَوَاكِ يَا
وأخذ المتنبي يضرب على وتر هجائه ، ويرميه بمقدع القول ، حتى إن المتنبي

لم يشهر بهجاء مثل شهرته بهجاء كافور ، مما جعل كثيراً من الأدباء ينسبون كل
هجاء قاله المتنبي ولم يعرف فيمن قاله إلى أنه قاله في كافور ، وحقاً لقد أقذع فيه
كل الإقذاع كقوله فيه :

مِنْ أَيْةِ الطَّرْقِ يَأْتِي نَحْوَكُ الْكَرَمُ؟ أَيْنَ الْمَحَاجِمِ يَا كَافُورُ، وَالْجَلَمُ؟
 سَادَاتُ كُلِّ أَنْاسٍ مِنْ نَفُوسِهِمْ وَسَادَةُ الْمُسْلِمِينَ الْأَعْبُدُ الْقَزَمُ
 أَغَايَةُ الدِّينِ أَنْ تَحْفُوا شَوَارِبَكُمْ يَا أُمَّةً ضَحِكْتَ مِنْ جَهْلِهَا الْأَمَمُ
 أَلَا فَتَى يُورِدُ الْهِنْدِيَّ هَامَتَهُ كَيْمَا تَزُولَ شَكُوكُ النَّاسِ وَالتَّهَمُ!
 فَإِنَّهُ حُجَّةٌ يُؤْذِي الْقُلُوبَ بِهَا مَنْ دِينُهُ الدَّهْرُ وَالتَّعْطِيلُ وَالْقِدَمُ

ولقد جلب المتنبى على نفسه عداوة وزير كافور أيضاً، وهو أبو الفضل جعفر بن الفرات، المعروف بابن حنزابة، فلم يمدحه مع أنه وزير كافور، والمقرب لديه، وهو من بيت شريف أهل وزارة ورياسة، ومن أهل العلم والأدب. وروى ابن خلكان أن المتنبى حين قصد مصر مدح كافوراً، ومدح وزيره أبا الفضل بقصيدته الرائية التي أولها: «بَادِ هَوَاكَ صَبْرَتَ أُمِّ لَمْ تَصْبِرَا». وجعلها موسومة باسمه فتكون إحدى القوافي جعفرأ وكان منها

صُنِّعَتُ السُّوَارِ لَايٌ كَفَّ بَشَّرَتُ بِابْنِ الْفُرَاتِ وَأَيُّ عَبْدٍ كَبَّرَا
 فلما لم يرضه صرفها عنه، ولم ينشده إياها، فلما توجه إلى عضد الدولة قصد أرجان، وبها أبو الفضل بن العميد، فحول القصيدة إليه، ومدحه بها فأبدل ابن الفرات بابن العميد. اه ولهذا أحاطت العداوات بالمتنبى، ففكر جدياً في ترك مصر. وهنا في هذا الظرف العصيب ذكر سيف الدولة وما كان يلقاه في جانبه من الخفض والدعة فقال:

فَأَرَقْتُكُمْ فَإِذَا مَا كَانَ عِنْدَكُمْ قَبْلَ الْفِرَاقِ أَذَى، بَعْدَ الْفِرَاقِ يَدُ
 إِذَا تَذَكَّرْتُ مَا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ أَعَانَ قَلْبِي عَلَى الشَّوْقِ الَّذِي أَجِدُ

عمل المتنبى في الخفاء على ترك مصر، فبدأ يعد كل ما يحتاج إليه بلطف ورفق كي لا يعلم به أحد من غلمانه، وهو مع ذلك يظهر الرغبة في المقام، ثم كتب إلى عبد العزيز بن يوسف الخزاعي في بلبس، يطلب منه دليلاً، فأرسل به إليه،

فدحه باربعة آيات فاذا كان يوم العيد الا كبر ستة خمسين وثلاثمائة، انتهز فرصة اشتغال الناس بالعيد، حتى لا يحفظ تغييه، وفر هارباً من مصر ناجياً من الضيق الذي أحاطه به كافر، ويقول المؤرخون إن كافوراً لما علم بهربه بذل جهده في اقتفاء أثره فلم يفلح، ونجا المتنبي منه ومن سجنه، ولا إخال أن كافوراً كان يخشى من المتنبي إلا لسانه وهجاءه المر المقذع، وقبل أن يغادر المتنبي مصر بيوم واحد، أنشأ قصيدة قوية السبك متينة الاسلوب، بدأها بهذا البيت المشهور:

عِيدٌ، بِأَيَّةِ حَالٍ عُدْتُ يَا عِيدُ بِمَا مَضَى، أَمْ لَأَمْرٍ فِيكَ تَجْدِيدُ؟
وفي هذه القصيدة مبالغة في الاقذاع لكافور، وحسبك أن تقرأ قوله:

إِنِّي نَزَلْتُ بِكَذَّابِينَ ضَيِّقُهُمْ	عَنِ الْقِرَى وَعَنِ التَّرْحَالِ مُحْدُوْدُ
جُودُ الرِّجَالِ مِنَ الْأَيْدِي وَجُودُهُمْ	مِنَ اللِّسَانِ، فَلَا كَانُوا وَلَا الْجُودُ!
مَا يَقْبِضُ الْمَوْتُ نَفْسًا مِنْ نَفْسِهِمْ	إِلَّا وَفِي يَدِهِ مِنْ نَتْنِهَا عُوْدُ
أَكُلَّمَا أُغْتَالَ عَبْدُ السُّوءِ سَيِّدُهُ	أَوْخَانُهُ، فَلَهُ فِي مِصْرَ تَهْيِيدُ؟
صَارَ الْخَصِيُّ إِمَامَ الْآبِقِينَ بِهَا	فَالْحُرُّ مُسْتَعْبَدٌ، وَالْعَبْدُ مَعْبُودُ
الْعَبْدُ لَيْسَ لِحُرٍّ صَالِحٍ بِأَخٍ	لَوْ أَنَّهُ فِي ثِيَابِ الْحُرِّ مَوْلُودُ
لَا تَشْتَرِ الْعَبْدَ إِلَّا وَالْعَبَا مَعَهُ	إِنَّ الْعَبِيدَ لَا تُنَجَّسُ مِنْكَ كَيْدُ
مَنْ عَلَّمَ الْأَسْوَدَ الْمَخْصِيَّ مَكْرَمَةً	أَقَوْمُهُ الْبَيْضُ، أَمْ آبَاؤُهُ الصَّيْدُ؟
أَمْ أَذُنُهُ فِي يَدِ النَّخَّاسِ دَامِيَةٌ؟	أَمْ قَدْرُهُ، وَهُوَ بِالْفَلَسِينِ مَرْدُودُ

ولم ينس في شعره الهجائي أن ينال أهل مصر بالتقريع والهجو، فهي أمة ضحكت من جهلها الأمم، لطاعتها كافوراً وخضوعها له، ومصر أهل كل عجيبة، بها كثير من المضحكات، ولكنها مضحكات مبكيات، قال المتنبي:

وَكَمْ ذَا بَعِصْرٍ مِنَ الْمُضْجِكَاتِ ؟ وَلَكِنَّهُ صَنَجِكُ كَالْبِكَاءِ
بِهَا نَبَطِيٌّ مِنْ أَهْلِ السَّوَا دِ يَدْرُسُ أَنْسَابَ أَهْلِ الْفَلَا
وَأَسْوَدُ مِشْقَرُهُ نِصْفُهُ يُقَالُ لَهُ : أَنْتَ بَدْرُ الدُّجَى
قالوا : إنه أراد بالنبطى أبا الفضل الوزير ، وبالأسود كافور .

وحقد المتنبى على المصريين ، ووسمه إياهم بالجهل والغفلة ، إنما هو لخصوعهم
لكافور ورضاهم به ملكا ، وفي الحق أن المصريين لا يعابون على ذلك ، بعد أن
تقبلوا الاسلام ديناً لهم ، والاسلام يحث على طاعة أولى الأمر من أى شعب
كانوا ، ولسنا نريد أن ندخل فى تفصيل النظريات الاسلامية التى قبلها المصريون
ودانوا بها ، تلك النظريات التى درسناها لم تعب على المصريين خضوعهم لكافور
هذا وقد كان المتنبى أمام مشكلة جديدة : تلك هى مدحه لكافور ، فماذا يصنع ؟
لم يكن بد من أن يكذب نفسه فيه ، ويقول :

وَشَعْرٌ مَدَحَتْ بِهِ الْكَرْكَدَنَّ مَ بَيْنَ الْقَرِيضِ وَبَيْنَ الرُّقَى
فَمَا كَانَ ذَلِكَ مَدْحًا لَهُ وَلَكِنَّهُ كَانَ هَجْوًا لَوَرَى

وليس أقوى من شعر المتنبى فى كافور ، دلالة على السخط على الحظوظ والنقمة
عليها ، حين يرى مواهبه وملكاته تزيد على مواهب كافور (فى نظره هو)
ولكنه لم يؤت حظه .

خرج المتنبى من مصر قاصداً الكوفة وحدثنا عن المواضيع التى مر بها فى
طريقه إليها : فى مقصورة أنشأها لهذا الغرض ؛ ولقد وصف خروجه من مصر
فى قصيدة رثى فاتكا ؛ وفيها يقول :

لَا أَبْغِضُ الْعَيْسَ ، لَكِنِّي وَقَيْتُ بِهَا قَلْبِي مِنَ الْحُزَنِ ، أَوْ جِسْمِي مِنَ السَّقَمِ
طَرَدْتُ مِنْ مِصْرَ أَيْدِيهَا بِأَرْجُلِهَا حَتَّى مَرَقْنَا بِنَا مِنْ جَوْشٍ وَالْعَلَمِ
تَبْرَى لَهْنٍ نَعَامُ الدَّوِّ مُسْرَجَةً تُعَارِضُ الْجُدَلَ الْمُرَخَّاةَ بِاللَّحْمِ

فِي غِلْمَةٍ أَخْطَرُوا وَأَرْوَاحَهُمْ وَرَضُوا بِمَا لَقِينَا، رِضَا الْإِسَارِ بِالزَّلَامِ
وهكذا كان مقامه بمصر ذكرى مؤلمة، تمر بقلبه، فتثير فيه عوامل الغضب
والحقد والأسى والحسرة، فتزيد نغمته على كافور، ويهجو ويهجو أيامه؛ هذا
ولأن المتنبي جاء إلى مصر لغرض خاص هو توليته ولاية في مصر أو في الشام،
لم يأبه كثيرا لآثار مصر وما توحىه إلى النفس من معنى الجلال والخلود، فلم تر
في شعره إلا ألفاظ النيل والهرم والمقطم فحسب في قوله :

أَيْنَ الَّذِي الْهَرَمَانِ مِنْ بُنْيَانِهِ مَا قَوْمُهُ، مَا يَوْمُهُ، مَا الْمَصْرَعُ؟
وقوله في قصيدة أخرى من قصائده الأولى في كافور بعد أن ذكر خيله وإبله :
وَسَمْنَا بِهَا الْبَيْدَاءَ حَتَّى تَغَمَّرَتْ مِنَ النَّيْلِ وَاسْتَدْرَتْ بِظِلِّ الْمَقْطَمِ
وفي الحق لقد شغل الأمل قلب المتنبي عن كل شيء، فأين هو من آثار مصر
وما في مصر من جمال وجلال؟

— V —

أثرت في نفسية المتنبي تلك المدة التي قضاها بمصر. فأوحت إليه بمبادئ
فلسفية آمن بها، لأنها كانت نتيجة اختبارات في المدة التي قضاها بمصر، فظهر
هذه المبادئ ثلاثة : أولها فلسفة النعمة على الدهر وسوء الظن به، والحقد على
تصاريفه، وذلك نتيجة طبيعية لما صادفه المتنبي من خيبة الأمل وانهيار الرجاء،
مع اعتقاده في نفسه أنه خير كثيرا من هذا الذي يتقلد زمام الملك في البلاد،
وأولى منه بالرياسة والسطان، ولهذا كان أتعب الناس لدى المتنبي كبير الهمة،
بعيد الأمل، واسع المطامع، إذا لم يبلغ مآربه وقصر وجده عما تشتهى نفسه،
وخير دواء رآه المتنبي لذلك هو لقيان الدهر من غير اكتراث وتهوين ما يشق
على النفس وقعه (وإن كان هو لم يعمل بما قال) وأنصت إلى قوله :

وَأَتَعِبُ خَلْقَ اللَّهِ مَنْ زَادَ هَمُّهُ وَقَصَّرَ عَمَّا تَشْتَهِي النَّفْسُ وَجَدُّهُ

ويقول في أخرى :

لَا تَلْقَ دَهْرَكَ إِلَّا غَيْرَ مُكَتَرَبٍ مَا دَامَ يَصْحَبُ فِيهِ رُوحَكَ الْبَدَنُ
فَمَا يُدِيمُ سُوراً مَا سُرِرْتَ بِهِ وَلَا يَرُدُّ عَلَيْكَ الْفَائِتَ الْحَزَنُ

ثانيها فلسفة سوء الظن بالناس وعدم الثقة بوعودهم وأحاديثهم وصدقهم ، ووفائهم ، فلا خليل إلا وهو مشكوك في صحة خلته لأنه بعض الأيام ، ولا صديق إلا وهو مطوى الصدر على الحب والخداع ، فلا يغرنك منهم ابتسامة طويلة ، ولا تحبب ظاهر تحته الغش والخيانة ، وهذا نتيجة طبيعية لحياته مع كافور الذي لم ينل منه أمله ، وإنما نال ابتساما فجازاه بابتسام ، واسمعه يقول :

وَلَمَّا صَارَ وَدَّ النَّاسَ خَبِئًا جَزَيْتُ عَلَى ابْتِسَامٍ بِابْتِسَامٍ
وَصِرْتُ أَشْكُ فِيمَنْ أَصْطَفَيْهِ لِعِلْمِي أَنَّهُ بَعْضُ الْأَنَامِ

ويقول :

هُوَ نَ عَلَى بَصَرٍ مَا شَقَّ مَنَظَرُهُ فَإِنَّمَا يَقْطَاطُ الْعَيْنِ كَالْحُلْمِ
وَلَا تَشْكُ إِلَى خَلْقٍ فَتُشْمِتُهُ شَكْوَى الْجَرِيحِ إِلَى الْغَرِيبَانِ وَالرَّحِمِ
وَكَُنْ عَلَى حَذَرٍ لِلنَّاسِ تَسْتَرُهُ وَلَا يَغْرُكَ مِنْهُمْ ثَغْرُ مُبْتَسِمِ
غَاضِ الْوَفَاءِ ، فَمَا تَلْقَاهُ فِي عِدَةٍ وَأَعُوْزَ الصَّدْقُ فِي الْإِخْبَارِ وَالْقَسَمِ

ثالثها فلسفة كانت في الحقيقة نتيجة رحلته في مصر ، تلك هي فلسفة القوة والسيف ونبذ فلسفة القول ، والشك في أنها تجدى ، وذلك أنه رأى نفسه ، مع تملكه عنان البلاغة وأزمة القول لم يبلغ ما كان يريد بلوغه من الولاية والملك والسلطان ، فشك في فائدة الشعر ثم عاد فآمن بأن القلم خادم السياف ، وأنه لا يجدى إلا إذا كان السياف هو الأمر المطاع ، وأنصت إلى قوله :

حَتَّى رَجَعْتُ ، وَأَقْلَامِي قَوَائِلُ لِي : الْمَجْدُ لِلْسَيْفِ ، لَيْسَ الْمَجْدُ لِلْقَلَمِ

أَكْتُبُ بِنَا أَبَدًا، بَعْدَ الْكِتَابِ بِهِ فَإِنَّمَا نَحْنُ لِلْأَسْيَافِ كَالْخَدَمِ
 أَسْمَعْنِي، وَدَوَانِي مَا أَشْرَتْ بِهِ فَإِنْ غَفَلْتُ فِدَائِي قِلَّةُ الْفَهَمِ
 مَنْ اقْتَضَى بِسُورَى الْهِنْدِيِّ حَاجَتَهُ أَجَابَ كُلَّ سُؤَالٍ عَنْ هَلْ يَلْمُ
 وإذا تدبرت قوله « رجعت » في الشطر الأول علمت أن تلك النتيجة كانت كما
 قلنا — أكبر ما جناه من رحلته بمصر (١) .

أحمد أحمد بروي

(١) المراجع :

- أ — ديوان المتنبي .
- ب — الصبح المنبي عن شخصية المتنبي .
- ج — وفيات الأعيان لابن خلكان .
- د — النجوم الزاهرة في ملوك مصر القاهرة .